

عولمة الثقافة من سجل الواقع إلى المأمول-

بقلم د/ العربي ولد خليفة

يطرح واقع العولمة الثقافية، أي تصنيع وتسويق الثقافة باعتبارها سلعة في سوق العرض والطلب، مشكلة راهنة وقديمة العهد في آن واحد وهي العلاقة بين وتربية الصناعة (Standardisation)، أي : إنتاج نفس الأشياء المتماثلة بوتيرة واحدة، وبين الثقافة التي لا تخضع للوتيرة عند إنتاجها، ولكن الإشهار والتقانات الثقافية تنقلها إلى صورة بضاعة في سوق عالمية، وبذلك تتفصل عن منتجاتها، إلا حاجات الإشهار، وتحقيق مزيد من الربحية. وهذا ما يثير مخاوف الغيورين على التقاليد والذخيرة التراثية التي أصبح بالإمكان توزيعها عن طريق كواقع في الشبكة المعلوماتية، وتدويلها لأغراض تجارية وهذا الوجه الأول من المشكلة.

أما الوجه الثاني فهو يتمثل في صعوبة التعرف في عالمنا المعاصر عما هو وطني أو أصلي أو محلي، وما هو عالمي شامل ومعلوم، -أين ينتهي الأول؟ وأين يبدأ الثاني؟ يتمثل جوهر المشكلة في الحقيقة في الوسائط ومضامينها. إن ناقلات (Supports) الثقافة كثيرة في زماننا هذا، ولكن أهمها على الإطلاق هو مؤسسات التربية والتعليم التي تقوم في كل البلدان بما يعرف بعملية

التطبيع (Socialisation)، وهي لا تكون في الحالات العادية بغير مرجعية روحية حضارية، ففي كل بلدان العالم تبدأ المدرسة بتمكين أطفال جيل كامل من مجموعة من المعتقدات وتعدّه للتحكم في آليات اللغة وهي غرث مشترك للمجتمع، وتزويد ذلك الجيل بمجموعة من الخبرات والمهارات، وتُعدّه لنمط من الحياة (صورته عن نفسه وعن غيره، وعلاقاته بمحيطه المادي والإنساني...) - يقترب من تقاليد مجتمعه الثقافية، أو في صورة مُحَوِّرة ومرغوبة من قادة الفكر والسياسة في المجتمع.

ولكن المشكلة لا تقتصر على جدلية التقابل بين الموروث الثقافي والعولمة الثقافية فحسب، بل إن استقراء الوقائع المتكررة تشير إلى أن تلك الجدلية موجودة أيضا فيما يسمى الثقافة المحلية نفسها بعد تزايد انتفاضات الهويات الاحتجاجية، والانتماءات الإثنية عبر العالم، أوصلت إلى مذابح في أوروبا، وعنّف وحشي ضد السود في الولايات المتحدة، وزحوف بعشرات الآلاف في أمريكا اللاتينية، فضلا عن الحروب المدبرة أو المنسية في جنوب السودان، وتأميل سريلانكا، وسيخ الهند، ومسلمي القوقاز وعلى الأخص تشيشينيا، فضلا عن بركان البلقان وإرلندا الشمالية أو الأولستر البريطانية وكورسيكا الفرنسية والباسك الإسبانية... والجماعات الأخرى العرقية الدينية اللسانية في أوروبا وهي من أكثر مناطق العالم تحضرًا وثروة.

يرجع بعض العلماء عودة العنف والصراع وظهور التنظيمات المتطرفة على المستوى المحلي والدولي إلى العقيدة الدينية، وحتى المذهب داخل الدين الواحد الذي يدفع إلى "التمترس" عند الشعور بالإضطهاد أو التعرض إلى الذوبان في

مجموعة أكبر، وقد خصص الباحث الأمريكي "بنيامين باربر" (B.barber) 1995 دراسة للحركات الجهادية في الاسلام المعاصر، وتتبع آلياتها وطرق الانخراط والتنظيم والخطابات التبوية، وكيفية تقديم صورة العدو وغير المنخرطين في التنظيم من نفس الدين أو المذهب.

كما قام الباحث الفرنسي "ج-ف بايار" (J.F Bayart) 1996 بدراسة مماثلة تحت عنوان : "وهم الهوية" (L'illusion identitaire) واهتم بوجه خاص بتأثير الوسائط الإعلامية في تكريس مفاهيم مشحونة بالحق والكرهية مثل أصولية، عنف، أنتقيرية، تصفية عرقية، وهو يرجع الوضعيات الصراعية إلى التنافس على السلطة بين قوى سياسية على المستوى المحلي ورهانات أوسع على المستوى الدولي.

من المشرع أن نتساءل عن مدى مصداقية كلمة "عودة العنف" عند الباحث "باربر" وغيره، إذ أن كل تلك الوضعيات موجودة من قبل فلماذا تشتغل تلك البراكين ثم تخبوا؟ ولماذا تبقى النار تحت الرماد؟ هل لقوة الدولة واستقرار المجتمع علاقة بذلك؟

تعرض الملاحظ إشكالية منهجية تعوق الاطلاع على وقائع موثقة من داخل الوضعية الصراعية، إذ كثيرا ما "يشيطن" كل طرف خصمه، ويبرز من الوقائع ما يخدم مطالبه، أو ادعاءاته وقد يصعب الحصول على وقائع مجردة من صبغة التهيج والذرائعية، وتقدم مشكلة أكراد العراق مثالا لذلك، فقد خرجت القضية من إطارها الثقافي السياسي الداخلي وخاصة بعد حرب

الخليج الثانية، لتصبح مشكلة دولية علي الرغم من أن وضع الأكراد في العراق لا يختلف عن مثيله في تركيا.

مما يؤكد فرضية عود الثقاب السياسي الذي يفجر الثقافات المحلية، والصراعات الإثنية، أن التعايش الآمن بين الثقافات الفرعية وحتى بين المذاهب والأديان المختلفة، قد ساد في فترات طويلة في العالم الإسلامي وغير الإسلامي، وأن وراء التناحر في الغالب الأعم بواعث سياسية، أو حالات من التفكك الثقافي والاجتماعي.

وقد قام الباحث حنايل 1992 (G.Hennebelle) في دراسته الاستقصائية تحت عنوان القبلية الكوكبية "Tribalisme planetaire". متابعة ميدانية للثقافات والأعراق في مناطق مختلفة من العالم، وفي بلدان كثيرة، ووصل إلى النتيجة التالية : إن البلدان التي يتوفر فيها انسجام عرقي-ثقافي - ديني-لغوي لا تتجاوز عشرة بلدان من بين 160 بلدا التي خصص لها بحثه، وأن البشرية تستعمل ستة آلاف لغة مكتوبة وغير مكتوبة تتوزع على 225 دولة ذات سيادة أو مناطق للحكم الذاتي يعني بمتوسط 26 لغة وجموعة إثنية في كل بلد من القائمة السابقة.

إن صعوبة التماثل أو النمذجة (Modlling) عن طريق العولة الثقافية لا ترجع فقط إلى الهوة السحيقة التي تفصل بين عالم المقدمة، وهو مركز من صنع الشمولية وأنماطها المنوالية، ولكن من اسبابها أيضا فلسفة التفوق والاستعلاء التي عبر عنها قادة الفكر والسياسة في الغرب منذ أمد بعيد، فقد حذر "كوبينو" 1853 (Gobineau) من مغبة التمازج أو التهجين الثقافي

الذي سيؤدي في رايه إلى ظهور نوع بشري بثقافة باهتة ومنحطة، كما طلب فيلسوف القوة نيتشة بالقضاء على أشباه الإنسان من غير الجنس القروء، على أن أمثالكم لم يفتؤوا حتى الآن أتفه من القروء في "قرديتهم". ويضيف على لسان زاردشت محرضا : "على أهل السيادة في الانسانية المتفوقة أن يمهّدوا سبيل السعادة لمن هم أدنى منهم، بالقضاء عليهم دون إهمال"

ولم تترد غولدا ماير "رئيسة حكومة إسرائي السابقة، في القول بأن "العالم سيكون بخير لو لم يكن فيه عرب، ولكن لا شيء في هذا الزمان والمكان أكثر شراً من الفلسطينيين". وعندما سأل أحد اللوردات الحاكم البريطاني في الهند عن مقابل كلمة شكرا بالهندية أجابه "السير" قائلا : "لا داعي لذلك، فلا أحد يستحقها"، وقد اعتبر الكولون وكثير من منظري الإيديولوجية الكولونيالية أن الأهالي الجزائريين أو جنس البرنوس (La race du Burnous) غبارا بشريا (Poussière humaine).

ينبغي أن لا تُعمم على الغرب كله مثل هذه المواقف الاستعلائية ففي الغرب بالتأكيد تيارات تحررية وإنسانية (Humanistes) اعترضت من الناحية الفكرية، والعملية على الاضطهاد والميز العنصري، وسادنت الكفاح من أجل تصفية الكولونيالية، على رأس تلك التيارات نساء ورجال تعرضوا للنبذ والتمهيش في بلدانهم، ولكنهم مثلوا دائما الأقلية طوال القرنين الماضيين، يذكر الاستاذ د.رينولدز نماذج من كتاباتهم ومواقفهم في دراسته الضخمة بعنوان "التاريخ الشام منذ 1945" (D.Raynold Global-History since 1945) ط.س 1990).

لا تسمح هذه الورقة الموجزة بمتابعة ظواهر العولمة الثقافية، ومضاعفاتها على العلاقات بين الأفراد والجماعات ولكننا نلاحظ أن مركزية العولمة ونمطيتها تثير ردود فعل قلقة، وحتى رافضة في الغرب أيضا، عبّر عن ذلك القلق والمخاوف أ.راموني في دراسته عن "التفكير الأحادي" 1995 (I.Ramonet=La pensée unique) حيث يندد بالمدخل الإنثوغرافي والتعارض الصراعى بين الحضارات، ويدافع عن النظرة الجيوسياسية التي تربط بين الظواهر الثقافية والسياسية، ويحذّر من عواقب تفكير أحادي يدور حول محور واحد يسميه الليبرالية التعبدية (CREDO du libéralisme) التي أصبحت نتيجة لتداولها والتعليق عليها ومناقشتها بين الكتاب والجامعيين والصحفيين ورجال السياسة من اليمين واليسار وأطيافها المتعددة، ستشهد كل منهم بالآخر، ويطلقون جميعا شرايعهم مع الريح طلبا للسمعة مستهينين بالأمواج الصاخبة هنا وهناك.

نتيجة للفكر الأحادي التعبدى حصلت الإيديولوجية الليبرالية على قوة ردع تخنق كل فكرة أخرى غيرها، وتصورها وكأنها شذوذ ومروق عن الطبيعي والسوي، وقد أطلق الكاتب راموني على هذا النمط من العولمة الاقتصادية الثقافية اسم الظلامية الجديدة (Que serait Rome sans ses ennemis).

في هذه اللحظات الحرجة من تاريخ أمتنا الإسلامية التي تتساوى في أفقها المنظور مؤشرات الوعد إلى الإخاء والمودة، في مرجعها الأول والاسمى القرآن الكريم، الذي لا يختلف على نصته إثنان من المسلمين، حتى أن أحد

كبار مترجميه وهو جاك بيرك خجل من وضع مقدمة لترجمته قائلا : "هل هناك اسمى وابلغ من البسملة والفاحة التي يتكرر فيها وصف الإله بالرحمن الرحيم أربع مرات".

لسنا في هذا المقام بصدد الحاجة والدفاع عن الاسلام، لأن الدين الحنيف باعتباره روحانية من أعلى طراز، ومبادئ تضع إطار عاما للسلوك المثالي والعلاقات السلمية بين الافراد والجماعات والأمم، إن هذا الدين يدافع عن نفسه بنفسه، ولا أدل على ذلك من انتشاره السلمي في كل القارات، بدون أن يشهر سيفاً، أو يشتري ذمة ذمة.

لا ينفي ذلك وجود أقليات فشلت في فهم تعاليم الدين، وأساءت إلى الإسلام عقيدة وحضارة، وهي الوحيدة التي تستفيد من خطاب صراع الحضارات، وعلينا أن نتساءل بصدق؛ هل من التزاهة أن نتصور مليارا من المنتمين إلى ما يسمى العقيدة "المحمدية" كلهم من النساء والرجال المثاليين الأتقياء الأصفياء؟ ألا يوجد في كل دين أناس متشددون ومنحرفون عن تعاليم أديانهم، توجههم إيديولوجيات مثل الصهيونية التي تستثمر الهولوكوست وتدعي أن اليهود وحدهم هم شعب الله المختار؟

لقد أدانت الأغلبية من مجتمعاتنا الإرهاب قبل حوادث 11 سبتمبر المريعة وبعدها، قبل الأنظمة والحكومات.

ولكن ما هو الإرهاب؟ إن التلاعب بهذه الكلمة واستخدامها بمدلولات زائفة منذ نضالات حركة التحرر الوطني، أدى إلى جعلها مرادفة لمقاومة الاحتلال وكفاح الشعوب من أجل الحرية والكرامة، كما هو الحال اليوم في

فلسطين حيث تتلاعب كثير من الأطراف بقضيتها العادلة، ويوصف نضال شعبها الصامد بالإرهاب، بينما يوصف المعتدي الغاضب بأنه يقوم بمجرد دفاع عن النفس.

قد يكون من المفيد أن نختتم هذه الورقة بجملة من الملاحظات نوردها بإيجاز على النحو التالي :

1- إن الشرط الأول لبناء تفاهم يُحرر الأذهان من الأحكام المسبقة ويسهل التقارب بين الثقافات؛ هو الحوار بين جميع الأطراف، بدون إملاء، ووصاية، ولا شك أن في الغرب مثلما هو في بلاد الإسلام، صفوة من رجال الدين والعلم، تسعى لوضع أسس للحوار، بدون خلفيات غيديولوجية أو تسليطية، كما أن في المجتمع المدني فصائل تناضل لمد جسور التعارف، والإخاء، والتعاون، على ضفتي المتوسط ووراء المحيط.

2- إن الحوار المثمر لا ينجح ولا يستمر، إلا إذا كان نتيجة لإرادة حقيقية لدى الجميع، فإذا كان التباعد والتصادم والحرب نتيجة لإرادات متعاكسة تنشذ الغلبة، وإلغاء الآخر، فإن الحوار والتفاهم والتصارخ والنقد التريه للأخطاء في الفهم والمعاملة، لابد أن تسبقه إرادة بناءة تنبع من حاجة كل طرف إلى الآخر، من منظور وحدة المصير الإنساني، في المنشأ والمعاد.

والملاحظ أن الذي يطلب الحوار، يكاد يستعطف الغرب الأروأمريكي هو الطرف العربي الإسلامي في مستوى الدول وفي مستوى بعض منابر المجتمع المدني وإذا قارنا بين الديباجات الأخلاقية والافتات التي تشيد بالمبادئ السامية وبين الواقع والممارسة خلال القرنين الأخيرين على الأقل وكلها تثبت عكس

ما يعلن بالألوان الجذابة فإنه يُحق لنا أن نتساءل هل حقق الحوار غير المتكافئ أية نتيجة سوى تنازل الأضعف عن حقوقه وكرامته؟! !

3- تمكنت حضارة الغرب الحديثة والمتواصلة منذ حوالي خمسة قرون من التعرف على حضارة الإسلام، وكان للمستشرقين والرحالة في البداية قصب السبق، ومنذ أكثر من قرن لا يكاد يخلو بلد من المجموعة الأوروبية الأمريكية من مراكز بحث، أو حلقات دراسة جامعية، تهتم بمشرق العالم الإسلامي ومغربه، تختلف تلك الدراسات في نوع المعرفة التي تهتم بها، والغرض منها، ولكنها بالتأكيد أثرت إلى حد بعيد على فهم أجيال في الغرب الأوروبي والأمريكي للإسلام.

4- إن معرفة الآخر والاستفادة من الطرف المتفوق، هو الطريق الذي سلكه الغرب نفسه من عدة منافذ، مثل الأندلس وبغداد والقاهرة ودمشق وبجاية وتونس... وغيرها من حواضر العلم والعرفان، بالترجمة والملاحظة والمعايشة، في حالات الحرب والسلم.

5- لقد خاضت النخبة الممتازة في الغرب غمار النهضة والتحديث، ولم تتحول إلى مسلمة أو عربية، لاعتقيدة ولا لسانا ولا مسلكية، فقد نقل روادها بصبر ومثابرة روائع الفكر والعلم، وتعرفوا على فن الحياة والجماليات والترفيه، وأخضعوها لثقافتهم ومسارهم التاريخي، في زمن تأهل فيه المسلمون لقيادة الحداثة، بالاختراع والإبداع.

خلاصة القول إننا على يقين بأن الحوار المثمر بين الحضارات الإنسانية ممكن، هو ضرورة، تتسجم مع منطق الواقع، والتاريخ، نحن لا نحمل للغرب أية كراهية إيديولوجية، فالعالم الحديث والمعاصر يدين للغرب، بمعظم

الإشجازات الحضارية، الفكرية، والتكنولوجية، ولكننا لن نكون أقل تنديدا بالإستعلاء، والنفاق، والأنانية من ذوي الضمائر الحية في الغرب نفسه. ونحن على يقين أكثر؛ بأن التواصل مع الغرب والتحديث لا يؤدي إطلاقا إلى التخلص من عقيدة التوحيد الموحدة وثقافتنا العربية الإسلامية، بل أنه سوف يستمر ويثمر في كل المجالات، إذا توفرت الإرادة، والشجاعة الأخلاقية، ليقوم كل طرف بتقييم دقيق لاسباب النجاح والافخاق، وأدرك دعاة الصدام أن في الإسلام روحانية عالية مع الأديان السماوية، والتفكير السليم في احترام إنسانية الإنسان.

إذا استعاد المسلمون عافيتهم الروحية، وأخذت العقلانية مكانها في موكب البحث والإبداع، فإنها لن تكون عقلانية متجبرة، وعليها غشاوة من الماركنتيلية المادية، وعبادة العجل الذهبي بل ستبشر الجميع بأن للكون إلها زحيفا بعباده، يدعوهم على التراحم فيما بينهم، وأن بين العقل والمادة روحا تحث على التضامن، والتسامح، والغفران.